المتظاهر (قصة قصيرة)[1]

المؤلف: رشيد ميموني ترجمها عن

رنّ جرس المنبِّه على السابعة صباحا، فمدّ الرجل يده بحركة دقيقة تنمّ عن العادة الطويلة لرجل لم يتمتّع قط بنوم الضحى. لا تزال عيناه مغمضتَين. قفز على رجليه وتوجّه فورا إلى غرفة الحمّام وهو يفرّك شعره بأصابعه. ابتسم لنفسه في المرآة ثمّ أدار الحنفية. لم تنبعث منها ولو قرقرة. خاطب نفسه قائلا: "لن أخسر شيئا إنْ أنا جرّبت". خُيِّب أمله وخمّن أنه بإمكان البلدية أنْ تتكرّم وتفتح سُكور أنابيب المياه ولو لسُوَيعات قليلة، خاصّة في مثل هذا اليوم العظيم. قصد المطبخ يبحث عن دلو الماء فوقف لحظة يتمتع بالنظر إلى الرُزنامة التي تزيّن الجدار. "أول ماي". لاحظ تاريخ اليوم بارتياح كما لو أنّه نسيَه، ثمّ غَمغَم وهو ينظر إلى السماء عبر النافذة: "يبدو لي أنّ اليوم، ستلمع فيه الشمس لمعانا خاصّا".

كان الرجل متعوّدا على مخاطبة نفسه والأشياء المألوفة بصوت مرتفع. غسل أطرافه بعناية غير معهودة، حلّق ذقنه بإحكام، سوّى شلاغمه بالمقص. وبعد ذلك، تناول فطورا صباحيا شهيا. "الديّ مُتّسع من الوقت، يكفي أنْ أكون هناك على العاشرة. لقد جوّعني التفكير فيما سأقوم به".

شغّل الراديو ورافق الأناشيد الوطنية المتتالية وهو يُدَندن مزهواً. "سأستعمل ما تبقى من الماء لغسل الأواني. هكذا، يكون كلّ شيء نظيفا داخل البيت تحسبا لكل طارئ. من يعرف؟"

بعد أن انتهى من التنظيف، فتح درج الكومودَة وأخرَج علبة سجائر أمريكية. جلس على الأريكة الوثيرة التي يأوي إليها للاستمتاع بالموسيقى، وراح ينتشي شيئا فشيئا بنفحات الدخان الأبيض، تغمره سعادة كبرى لكونه يملك وقتا فارغا أمامه. ثمّ قام لارتداء بذلة المناسبات الكبرى. تردّد لحظة في اختيار ربطة العنق؛ ولكنّه بسرعة اتّخذ قراره. "ينبغي الحفاظ على رزانتي. إنّ السوداء ذات الخطوط الحمراء تليق بالمقام". تأمّل نفسه في مرآة الخزانة، فخرج من الامتحان ناجِحا. نظر إلى ساعته التي أشارت إلى الثامنة والنصف. "حانَ وقت الذهاب. ستكون الحافلات اليوم نادرة".

أمْسَك الجِرابَ النسيجي الذي يُظهر قضيبا طويلا من الخشب الجديد، ألقى نظرة فاحصة دائرية على المكان ليتأكّد من التنظيم الجيّد للأشياء. وقبل أنْ يتوجّه نحو الباب، أدخل يده في جيبه يبحث عن المفتاح، فخطرَت بباله فكرة: "هل أغلقت الحنفية جيدا؟" لاحظ أنّ الحنفية كانت مفتوحة إلى آخرها

---

[1] القصة مأخوذة من المجموعة القصصية: La ceinture de l'ogresse : Rachid Mimouni. Ed. Laphomic Alger 1990. PP. 15/56.

فاعتبر نباهته علامة بُشرى " يُمكن جدا للبلدية أن تبادر إلى فتح عيون الماء في غيابي. في هذه الحالة وإن كانت جدّ مُستبعدَة، كنت سأجد البيتَ غارقا في طوفان حقيقي".

حينما فتح الباب، وجَد نفسَه وَجها لوجه مع جارته. يبدو أنّ السيّدة المهيبة، الثرثارة، تقضي أيامها على مَدخَل الدرج تراقب المستأجرين المتأخرين عن الدفع. أسرَع ليبادرها بالتحية، مشيرا لها إلى نوعية الصبيحة الربيعية. دمدمَت بتذمّر ثمّ مطّت شفتيها اشمئزازا، تظهر مزاجها السمج، السيئ، الذي يُضرَب به المثل في الحيّ:

– هاه... لماذا اغتنَمت جميع المحلاّت مناسبة عيد العمال لغلق أبوابها؟ لا يمكن العثور على رغيف خبز ولا كيس حليب. بماذا سأطعِم أطفالي؟

وكانت تملك منهم الكثير. يَظهر أنّها أحَسَّت بالموت المبكر لزوجها، فأسرعت إلى إنجاب أكبر عدد ممكن من الذرية. تأمّل الرجل صدرَها الثخين، وخمّن أنْ يقترح عليها إرضاعهم من ضرعَيها الضخمَين. ولكنه فضّل التراجع الحذر وانسلّ مع الدرج. طاردته قائلة:

– هل أنت ذاهب للخطوبة اليوم؟

استدار. كانت السيّدة تتفرّس فيه باستهزاء. فردّ قائلا:

– وهو كذلك.

عندما وصل إلى الطابق الأرضي، وقف لثوانٍ جامدا وسط الرواق قبل أنْ يُخاطر بالخروج برغم الشمس الساطعة التي لفحت وجهه، فألقى ابتسامة زهو باتجاه السماء: "إنها لبهجة كبيرة أنْ يَتزامن عيد العمال مع يوم ربيعي كهذا". كانت الأرصفة تزدحم بعناقيد المراهقين العاطلين. كما تتمدّد أمام المخابز المغلقة طوابير أطفال غير مُنضَبطين ولكنّهم صابرون. تساءل الرجل بدوره عن السبب الذي يجعل تجار المدينة يَستغِلون يومَ العطلة لغلق محلاتهم. "لماذا يرفضون البيع؟ هل جمعوا ثروة كبيرة ولم يعودوا بحاجة إلى أموال؟"

كانت المقاهي القليلة التي فتحت أبوابها مكتظة بالناس ولا وجود لطاولة شاغرة. الضجر ظاهر بشكل صارخ على وجوه الزبائن المبكرين، وهم يتكئون بمرافقهم على "فورميكا" الطاولات. المناقشات معطّلة. يتساءل الجميع عمّا سيفعلون بيَومهم هذا وهو لم يزل في بدايته بعد. فتساءل الرجل في قرارة نفسه أنّه من المؤسف إلغاء تظاهرات أول ماي. "الحفل ليس مُكلفا ولا عديم الفائدة مثلما يعتقد الكثير منهم. إنّ العمال، الواحد إلى جنب الثاني، سينتابهم إحساس بنبل مركزهم الذي سيؤكدونه للعالم مرّة في السنة، وهم يمشون في الشارع، تحت الشمس، هم الذين يقضون طوال أيام السنة محبوسين داخل الحظائر".

كان موقف الحافلة فارغا. "اليوم على الأقل، لا أتزاحم مع أحد للصعود داخل الحافلة".

بعد نصف ساعة من الانتظار، ظهرت حافلة في الأفق، جديدة تقريبا ومع ذلك متهرّئة، تسحب خلفها غيمة دخان أسود متموّج. لم ينفتح الباب الأوتوماتيكي إلاّ تحت دفع أكتاف المسافرين. وكانت الحواشي المطاطية الواقية ممزّقة ومتدلية نحو الأسفل. "لماذا تُترَك مثل هذه الحافلات الثمينة بدون صيانة؟" عبر الزجاج المفتوح، أعلن القابض عن مكان توجّه الحافلة. بعدها مباشرة، احتج بعض المسافرين الذين تسارعوا إلى الركوب، فطلبوا النزول، مما أدّى بالصاعدين الآخرين إلى الخروج كلية من الحافلة تحت تأثير قوة دفع الهابطين. لم يَستتب الوضع إلا بعد دقائق عديدة. فانسلّ الرجل وسط الزحمة إلى غاية مكان السائق وهو يمسك جِرابه القماشي بإحكام. ألقى السائق نظرة إلى المرآة الارتدادية، وبطريقة غير مباشرة، ابتسم للزبون الذي تعرّف عليه لحظتها وقال له:

– أهلا بالرفيق... أنت اليوم أيضا في الخدمة؟

ردّ المسافر بابتسامة عريضة:

– لا، لا... ليس هذا أبدا. أنا ذاهب إلى وسط المدينة. إنه يوم متميّز بالنسبة لي.

أعاد السائق بصره إلى الشارع المناسب أمامه وطفق يدندن قصيدته المفضّلة لـ"غودْوارد كيبْلينْغ" (godouard Kipling).

عند هبوطه من الحافلة، أرسل الرجل إشارة إلى السائق ثم اتّجه مسرعا نحو زنقة فرعية بخطوات حذرة، وهو يحترس ليتجنّب برك المياه الآسنة التي تلطّخ الرصيف. "إذا لمْ أحذر، فإنّ قفا سروالي لن يكون منظره مسرا". ومع ذلك لم يكن بإمكانه الإفلات من رذاذ الملابس المبللة المعلقة في الشرفات. فتساءل هل بإمكان اتخاذ إجراءات رادعة ضد أمهات محصنات بذرية كثيرة. أخيرا، وصل إلى الشارع الرئيسي للمدينة. كانت سعة الأرصفة تحميه من الأخطار التي يمكن أن تسقط من أعلى طبقات البنايات. الشارع غاص بالرجال والسيّارات. "كيف يمكن لمدينة صغيرة أنْ تحوي هذا العدد الهائل من السكان؟ أين يقضون لياليهم قبل أن يخرجوا بهذه الكثرة إلى الشمس؟"

بحث بعينيه عن ممرّ خاصّ بالراجلين، وبعد حوالي خمسين مترا اكتشف واحدا كانت خطوطه الدهنية البيضاء لا تكاد تُرى. توجّه نحو الممرّ المخطّط منذ سنوات طويلة، وحاول مرارا العبور دون جدوى، ذلك أن السيّارات كانت تمرّ بسرعة فائقة كما لو أنّ أصحابها يجدون متعة في زيادة السرعة كلما اقتربوا من ممَرٍّ للراجلين. سمحت له فتحة في القطيع الصاخب بالتقدم قليلا. وبعدما وصل إلى وسط القارعة اضطر إلى التوقف. كانت العربات تنقضّ عليه مثلما تنقضّ الأمواج على الحشفة. وقف هنيهة

يبتَسم للسائقين الذين يرفضون التوقف، بل يتجنّبونـه دون حتـى إنقاصٍ فـي السرعة. سمح لنفسـه بـأنْ يبدي إشارة يد خفيفة لبعضهم. فكانوا بدون شك يحسبونه أحد المجانين الذين يكثر عددهم في المدينة.

أخيرا، جثا الرجل على ركبته وطفق يُخرج اللافتة الخشبية من الجراب النسيجي، ثم نهض واقفا وأخرج صدره إلى الأمام، رفع بصره إلى أعلى، أمسك بثبات وباليدين مع قضيب اللافتـة، وتقدّم بخطـى وئيدة، ثقيلة، يشقّ النهر الآلـي فـي الاتجـاه المعـاكس، غيـر مبـالٍ بالاضـطراب الـذي أحدثـه. تمهّل بعض السائقين ليتمعنوا جيدا هذا النموذج الفريد الذي يتحداهم وسط القارعة، وهو يزيد من ضخامة حركة المرور. تجمهر بعض الفضوليين. يسليهم المنظر في الوقت الذي يثير في نفوسهم حيرة مريبـة. استمرَّ الرجل فـي السَير، رصـينا، وسـط الطريـق، يرفـع اللافتـة إلـى الأعلـى وكـان قد خطّـط عليهـا بخَـطٍّ فنـيّ، بالعربية، ثم بالفرنسية هاتين الكلمتين البسيطتين:

يَحيَا الرئيس

Vive le président

جلـب صُـعود المتظـاهر الوحيد علـى أرصـفة الشـارع عناقيدَ كثيـرة مـن المراهقين العـاطلين الـذين تسارعوا لمرافقة هذا المُناصر الغريب. تردّد الشرطي الأوّل الذي شـاهد المُتظـاهر الوَحيد حول الموقف الواجب اتخاذه. وليتأكّد جيدا من حقيقة المنظر الذي يتجلى أمام بصره، تقدّم غريزيا بخطـوة أولـى؛ ولكنّـه لم يجرؤ على الاستمرار. شوّشت ذهنَه مجموعةٌ متشابكة من الأسئلة وكان حائرا في الموقف الذي ينبغي أن يسلكه. أخيرا، فضّل الانسحاب، متوجها نحو شارع خلفي. كـان هذا الشرطي حكيمـا. بعد مائـة متر أخرى، صعق شرطي آخر وهو يشاهد المنظر الغريب، ولكن هذا الأخير لم يتساءل عن ردّ الفعل الملائم اتجاه هذا النوع مـن الحـوادث. كـان بحوزتـه جهـاز التواصـل اللاسـلكي "الطـالكي والكـي"، فـأخبر رئيسـه الذي يكون متجولا في الحي داخل السيارة. كان هذا الشرطي نَبِيهًا ومنضبطا. برغم رتبتـه المحترمـة، لم يكن المساعد الأوّل يحب اتخـاذ المبـادرات بمفرده. بواسطة الراديو، أخبـر المحـافظ، وهذا الأخير هتـف بحماس إلى كل من الرئاسة والحزب والنقابة.

كانت الأجوبة الثلاثة متشابهة وقاطعة: لا، لم تبرمَج أيّة مظاهرة في هذا اليوم. وقد نبّهـه محـاوروه بأنهم، في مثل هذه الحالات، يخبرون دائما الصحافة لتجنيد الشعب والشرطة لمراقبتـه. وبعد المكالمـات مباشرة، أعطى المحافظ أمرا بتوقيف هذا الإنسان الغريب. وقد أصبح الأمر خطيرا حينمـا اقتـرب حامل

اللافتة من القصر الرئاسي. وكان شرطي ثالث ينتظره وهو على بعد بضعة أمتار فقط من السياج المذهّب. ولم يتردّد هذا الأخير لحظة في التدخل، مقتنعا بأنّ تواجده في مثل هذا المكان يخوّل له مسئولية خاصّة، زيادة إلى أنه كان طموحا. في هذه اللحظة المحدّدة، ظهرت سيارة المُساعد الأوّل، نزل منها رجلان وأركبا بخفة المتظاهر. المثير للدهشة أنّ الموقوف لم يبدِ أيّ احتجاج ولا أدنى مقاومة. سيقَ الرجل وأدواته إلى داخل مكتب المحافظ وأغلق الباب خلفه. ولم يكن رئيس الشرطة يعرف ماذا سيفعل بهذا الطائش الذي سقط بين ذراعيه في يوم عيد العمال. بعد تفكير قرّر أن يعهد مهمة الاستجواب الأوّلى إلى مساعده، قائلا له:

– أعرفك نبيها في مثل هذه الأمور السياسية الطارئة، فحاول أن تجنبنا اللجوء إلى العصا التي نعتمدها عادة في مثل هذه الحالات الحساسة. أما أنا، فسأذهب للبحث عن حليب الغبرة لمولودي الأخير.

– إذا وجدت فلا تنساني. لديّ نفس المشكل. لقد أصبحت هذه المادة نادرة في أيامنا هذه.

– اتفقنا. قدّم لي التقرير بعد عودتي. أصارحك بأن هذَين الأمرين يحيرانني.

أُدخِل المتظاهر إلى مكتب المساعد الأوّل الذي قدّم له كرسيا، ثم بدأ يتأمله بنظرة وهو يدخن سيجارة. جلس الرجل هادئا. لم يكن خائفا ولا مطمئنا. وكان هذا الموقف الحيادي التام يربك الشرطي الذي لم يتمكن من تصنيفه ولا من الاهتداء إلى الطريقة الأكثر فعالية لمباشرة الاستنطاق. لذلك، قرّر إعطاء مهلة تفكير لنفسه. أخرج من الدرج مطبوعا ضخما وبدأ يطرح أسئلة محدّدة على الرجل الذي كان يجيب بإرادة حسنة، مقدّما كل التفاصيل الضرورية، كأنه كان مُصّرا على أنْ لا يكتنف الملف بعض النقص، ولا تفلت أدنى إشارة من محاوره. سجّل الشرطي المعلومات بعناية على المساحات المخصّصة لهذا الغرض على المطبوعة. وبين الفينة والأخرى، كان يعيد قراءة ما كتبه بصوت مرتفع، للتأكّد، أو لتزجية الوقت. وبعد ساعة كاملة قضاها في ملء مطبوعة المُستنطَق، رقع الشرطي رأسه ودفع جانيا الملف الضخم بظهر يده وقال:

– حسنا... الآن، وبعد أنْ أرضَينا المطالب الإدارية، يمكننا الحديث عن القضية التي تهمنا. اشرَح لي إذًا أصل سُوء التفاهم هذا؟

– سوء التفاهم؟

– هذا ما أطلبه منك.

– لم أفهم قصدك.

– وأنا أيضا.

– إذًا؟

– إذًا، أرى بأنّك ربّ عائلة محترم.

– لا.

– نعم؟

– لست ربّ عائلة مُحترم. إنني أرمل وبدون أولاد. إنّك قد سجلته في ملفك.

– أردَت ببساطة أنْ أقول إنّه يُخيّل إليّ أنّك مواطن حسن السلوك.

– هذا يريحني كثيرا.

– ونتيجة لهذا، إنّ هدفنا هو الإقرار بأنّ فعلك هذا حدث نتيجة غلطة مؤسفة. إنك بدون شك عامل حيّ الضمير. ربّما استدعاك الفرع النقابي لمؤسساتكم إلى المشاركة في مظاهرات أول ماي، وقد دفعك حسك النضالي إلى الاستجابة لمثل هذا الواجب.

– لا.

– نعم بكل تأكيد. أنا لا أجهل كيف تجري الأمور على حقيقتها. لنتكلم بصراحة. أعرف أنّ المَسئولين يُسَجّلون الحاضرين ويعاقبون الغائبين بخَصم أجرة يوم كامل. إنّ العملية غير شرعية، ولكن ما العمل؟ يحدث هذا بنفس الكيفية عندنا في الشرطة.

– عندكم أيضا !

– بكل تأكيد ! أتصَوّر أنّ دَعوة نقابتكم للتظاهر لم تكن تهمك إلا قليلا إلى درجة أنه اشتبه عليك مكان التجمهر. إن هفوتك هذه نتيجة لامبالاة مقبولة.

– لا.

– كيف لا؟ أعرف بأنّ حرية التعبير ممنوعة في هذا البلد، ولكن الاستثناء قائم عند أجهزة الشرطة، ويمكنك البوح هنا بكل شيء، دون أنْ يساورك أي خوف.

– لا.

– كيف ذلك؟

– أنا مقتنع بضرورة التجنيد الدائم للعمال. وأهتم كثيرا بكل النشاطات النقابية، لذلك لا يمكنني الوقوع في مثل هذه اللامبالاة عشية أول ماي.

– أفترَض أنّك تغيّبت عن العمل بالأمس، وهذا ما حال دون إعلامك بإلغاء المظاهرات المبرمجة.

– لا.

– نعم، هذا أيضا أعرفه. لا يليق الحديث عن الغيابات. يمكن للمسئول أنْ يخصم من أجرتك الشهرية يوما كامِلا. لنَقل إنّك كنت منشغلا بأمر ما. إنّ حكامنا يتفهمون بسهولة أننا لا نحب العمل. إنّه شاق ومُضجر. ولكنهم لا يتفهمون أبدا أننا لا نحب التظاهر. إنها سياسة.

– لا.

– وما المشكل إذًا؟

– لم أتغيّب بالأمس. وأنا لا أتغيّب أبدا. طوال حياتي وأنا كموظف بالبريد، لم يبقَ مكتبي شاغرا إلا مرّتَين. المرة الأوّلى يوم وفاة زوجتي، والثانية كان ذلك رغم إرادتي.

– رغم إرادتك، ماذا تقصد؟

– في ذلك اليوم كانت الشرطة تريد أنْ تعرف الحقيقة.

– هل لديك ملف عندنا؟

– مُحتمل.

– إنني مُصغٍ إليك.

– حدث هذا منذ زمن بعيد، أيام الاستعمار.

– المظليون؟

– بالضبط.

– إنك إذا من قدماء المجاهدين.

– لنتحاش المبالغة.

– لقد احتفظت الشرطة حقا بجميع الملفات القديمة. وكان علينا أنْ نقلِب الأمور فقط، ليصبح المتمردون أبطالا والأبطال خَوَنة. أريد فعلا قبول تصريحك هذا. ولكن الآن لا تهمني تفاصيل حياتك. أحاول فقط الكشف عن أصل سوء التفاهم الذي جعلك تخرج للتظاهر إلى الشارع بمفردِك.

– لا وجود لسوء تفاهم.

– مرة أخرى لا أفهمك ! كيف وجدت نفسك وحيدا وسط الشارع رافعا هذه اللافتة؟

– لم يكن هناك تغيّب أو لامبالاة أو مظاهرة ملغاة. نزلت إلى الشارع بمحض إرادتي.

– أنتَ مُتعمّد إذًا؟

– نعم.

– أتقرّ بهذا؟

– بكل تأكيد.

– هل أنت مجنون؟ ماذا حدث لك؟ هل تعرف إلى أين ستؤدي بك هذه الحماقة؟ هل أنت واعٍ بخطورة هذه الاعترافات وبكل النتائج المترتبة عنها؟

– نعم.

– هل سبق لك أنْ عولجت في مستشفى الأمراض العقلية؟ السؤال غير موجود في الاستبيان. إنه نقص فادح.

– أبدا.

– يبدو أنّ صحتك قد تدَهوَرت في الأيام الأخيرة وأنت بحاجة إلى علاج.

– إنني أتمتع بكل قواي العقلية.

– المعروف أنّ المعتوهين غير قادرين على الحكم على حالتهم الصحية. إن إثباتاتك لهي خير دليل على ما أقول. لو كنتَ سليم العقل لأدركتَ أنّه من الأحسن لك أنْ تكذب، فهو خير لك من أنْ تكابد النتائج المترتبة عن فعلك المتهور هذا.

– ليس في هذا ما أخشاه. إنّ الدستور يُقرّ لكل المواطنين بحق التعبير عن آرائهم. ولم أفعل سوى أنني استعملت هذا الحق للتعبير عن مساندتي لنشاط الرئيس وشخصه. وعلى حسب معرفتي، التظاهر ليس ممنوعا في الشارع ولو لشخص واحد.

– إنّ المسائل القانونية تتجاوزني. أنا لست إلا مساعدا أوّلَ. وانضممت إلى الشرطة مباشرة بعد رسوبي في البكالوريا. إنها مهنة تتطلب خفة بدنية أكثر منها ذهنية. وكنت دائما أركض بسرعة. وبما أنني أتمتع بحدّة النظر، فقد تعلمت الرماية بسرعة. ولكنني لست أكثر بلادة من الآخرين وأعرف أنّ مثل هذه المظاهرات لا ينظمها إلا الحزب أو النقابة. ولا أبالي كثيرا بمواد النصوص التي تتحدث عنها. ولا أظن بأنها ذات فعالية في الشرطة. وبما أننا في يوم راحة، وأنني أريد الالتحاق ببيتي في أقرب وقت ممكن فإنني من الآن سأسجل كل تصريحاتك.

– ولكن أجهزة الراديو والتلفزيون تتحدث دائما عن المبادرات الشعبية العفوية، حيث تنتفض الجماهير مثل رجل واحد...

– إنك تهزأ؟

– أبدا، إنني أعتقد اعتقادا راسخا بصحة هذه الأقوال.

– يتوجّب عليّ أن أحدثك بلغة صريحة. فإن أردت أن تتحايل علينا، فإني أعلمك بأنك ستدفع الثمن غاليا. في هذا البلد، يوجد شيئان مقدسان: الرسول والرئيس. ولا يُسمَح لأحد أنْ يمسّهما بسوء. إذا انتقدت الأوّل، فإنك تريد الحط من الإسلام. وإذا انتقدت الثاني، فإنك تريد تحطيم الثورة.

– أريد أنْ أعرف لماذا أودعتموني هذا المكان؟ وما هي التهمة الموجّهة إليّ؟

– هل تصرّ على أنّك تعمّدت القيام بهذا الفعل وبعد التحضير له؟

– نعم.

– في هذه الحالة، إنّ القضية تتجاوزني، ولا أستطيع مساعدتك. كان الله في عونك.

بهذه العبارة ختم الشرطي الحديث وهو ينهض من مقعده. كان المحافظ ينتظره في مكتبه. فبمجرد دخوله، سأله:

– وبعد؟

فردّ هذا الأخير:

– وبعد؟

– باءت كل محاولتي بالفشل. لا وجود لعلبة حليب واحدة. وكيف حال صاحبنا؟

قدّم الشرطي تقريرا مفصّلا عن الاستنطاق.

– إنها قضية سياسية إذا. هذا ليس من اختصاصنا، سنسلّمه فورا إلى المصالح المختصة. وهو أحسن لنا. أظن بأنك لم تطرح عليه أسئلة معرضة للشبهات.

– لا، بكل تأكيد. لقد اكتفيت بأسئلة الاستبيان القديم. وحَملته على تأكيد أنّ ما أقدَم على فعله ليس هفوة.

– ذلك أنه ليس من المستبعد أن يجد هذا الرجل نفسه متهما بالخيانة العظمى أو المساس بنظام الأمة. حسنا، سأهتف للمصالح المختصة. سيتأخرون دون شك قبل الوصول إلينا. إن هؤلاء الناس مشغولون دوما.

– يجب أنْ أخبرك أنّ هذا الرجل لا يظهر أنه قلق على مصيره. هل أنت متأكد من أنّ الحزب والنقابة لم ينظما تجمعا ما.

– هذا ما أكّده لي المُراسلون الذين اتَّصلت بهم.

– ربّما كانت معلوماتهم ناقصة.

– وكيف تفسّر أنه وُجِد وحيدا؟

– أنت تعرف أن هذه المظاهرات الرسمية لا تجلب الناس كثيرا على خلاف ما تظهره لنا صور التلفزيون المزوّرة. من جهتي، حدث أن وجدت نفسي الحاضر الوحيد في اجتماع خلية الحزب.

– في انتظار ذلك، اسهَر على أن يعامَل معاملة لائقة. ولا تُخبر أحدا. كما لا أريد لأعواننا أن يعرفوا شيئا. أتمنى أنه لن يخلق لنا مشاكل في انتظار تسليمه للمصالح المختصة. ليبقَ معزولا.

– أين ينبغي وضعه؟

– من الأفضل أن نتركه في المكتب. أطلب من أحد رجالك أن يضع فراشا وغطاءً.

– كلها مشغولة.

– كيف ذلك؟ هل قمتم باعتقالات جديدة؟

– لا، ولكن لدينا قريبان لأحد أعواننا أتيا لزيارته بمناسبة أول ماي، وبما أنه يسكن في غرفتين مع أبنائه الأربع عشرة، لم يعثر على مكان لإيوائهما، فطلب رخصة ليقيما داخل زنزانة المحافظة. ولم أرفض.

– دبّر رأسك... لا أريد مشاكل مع هذا الرجل.

اقتحم المساعد الأوّل مكتب المحافظ في الوقت الذي كان هذا الأخير يستعد للخروج.

– إن الرجل الغريب يطلب مقابلتك.

– ماذا يريد مني؟

– رفض أن يفصَح لي عن السبب.

– أصغِ إليّ جيدا... هذه ثلاثة أسابيع وأنا أقوم بالمداومة بدون أن نُدخل في الحساب هذا اليوم الذي لم يأت في محله إطلاقا. أنا مُنهَك. حاول أنْ تعقِّله، امنَح له كل ما يريد.

– يريد مخاطبتك شخصيا، وهو مصرّ على ذلك.

دمدم المحافظ قائلا:

– إنه سيّء الحظ، لأنني لست في حالة جيدة اليوم.

توجّه المحافظ بخطى خفيفة نحو المكتب الذي حُوِّل إلى زنزانة وفتح الباب بعنف. نظر إلى الرجل بقسوة وكان هذا الأخير قد وقف عند دخوله.

– أنت هو المتهم؟ تريد مكالمتي؟ إنني مُصغٍ إليك، كُن مختصرا.

– يا سيدي المحافظ، اسمح لي أولا بإلقاء التحية عليك. ولكن بما أنك تطلب الاختصار، فأعبر عن مطلبي مباشرة. ألاحظ أنكم أحضرتم سريرا إلى هذه الغرفة، وأستنتج إذاً أنكم تنوون حجزي لمدة طويلة. وأنت بنفسك عاملتني كمتّهم. لهذه الأشياء كلها، أطلب منكم تحديد الجنحة التي تتهمونني بها؟

– كيف ذلك؟ ألَست واعٍ بخطورة ما أقدمت على فعله؟

– كنت أجهل أنّه يمكن لشخص أن يُتّهَم بجنحة بمجرّد أنه عبّر عن رأيه، وعلى حسب علمي نحن في بلد ديمقراطي.

– لم أقل مثل هذا الكلام.

– زيادة على هذا، فإنني لم أفعل إلا أن عبّرت عن مساندتي للرئيس. وهل أستنتج أن نظامكم السياسي يمنع مساندة الرئيس؟

– قطعا لا...

– إذا، هل قمت بفعل يستحق الردع؟

– إنّ حالتك ليست من اختصاصي. اليوم هو أول ماي، عطلة مدفوعة الأجر، وعبر كامل التراب الوطني، يتمتع العمال براحة مستحقة. إنّ أعوان الشرطة هم أيضا عمال. غدا سيتولى أمرَك من يُخوَّل لهم القانون الفصل في مثل هذه القضايا. وسيجيب هؤلاء عن كل تساؤلاتك.

– من هم هؤلاء الناس؟ لم أفهَم...

– المصالح الخاصّة.

– عملية غير شرعية. لا وجود لقانون يسمح بتأسيس شرطة سياسية.

– لماذا كنت تريد مقابلتي؟

– أريد أن أعرف ما هي التهمة الموجهة ضدي.

– لنتفادَ اللجوء إلى الكلمات الكبيرة. أنت لستَ محبوسا بل محجوزا إلى غاية انتهاء التحقيق حول ما قمت به.

– هل قمت بفعل يقع تحت طائلة قانون العقوبات؟

– لم أقل مثل هذا الكلام.

– إنني أستنتج أن توقيفي هذا هو سبب التعبير عن رأيي.

– أبدا... إن هذه الجنحة غير موجودة في الدستور.

– بما أنكم لا تستطيعون إحالتي أمام القاضي، فينبغي إطلاق سراحي.

– مستحيل...

– ونتيجة لهذا، أطالب بمنحي منزلة السجين السياسي.

– ولكنك تعرف جيّدا أنّ في بلادنا لا وجود لسجناء سياسيين. الرئيس نفسه أعلن ذلك للصحافيين الأجانب. إذا أنت لست سجينا سياسيا.

– أطالب بالحقوق الخاصّة بوضعيتي كسجين سياسي.

– وما هي هذه الحقوق؟

– بدءًا بالحق في الإعلام. أريد جهاز تلفزيون في غرفتي.

– أنت تهزأ؟ هذه الأجهزة لا تباع إلا في السوق السوداء وبثمن يفوق خمس مرات السعر الرسمي المعلن عنه. أنا نفسي اضطررت إلى استعمال نفوذي كي أقتني لأولادي هذا الجهاز.

– هذه ليسَت مشكلتي. وأريد أيضا توفير جميع الصحف بما في ذلك الجرائد الأجنبية.

– أنت تعرف جيّدا أنّ هذه الأخيرة، المستوردة بتقتير كبير، تباع تحت الكونتوار. إن وظيفتي كمحافظ لا تسمح لي بالحصول على نسخة واحدة. ومع ذلك، أنا أيضا، أحب معرفة ما يجري في العالم من أحداث. ولكن يحدث لحكومتنا التي ترهق نفسها بأوهام الديمقراطية أن لا تملك وسائل سياستها، أن تنقصها العملة الصعبة.

– كما أريد ورقا وقلما وظرفين بطابعين بريديين، الواحد للداخل والثاني للخارج.

– لمن تريد الكتابة؟

– أولا للرئيس، أخبره بما يحدث لي.

– وتفعل هذا؟

– أنا متأكّد بأن محيطه يخدعه. هذا ما يفسّر جميع القرارات السيئة التي يتخذها. إنني معجب به وأحترمه كثيرا. لهذا السبب أردت مساندة وتشجيع سياسته. وأعرف أنه سيعترف لي بحقي.

– ستصاب بخيبة أمل دون شك. والرسالة الثانية؟

– إلى منظمة العفو الدولية، لكي تعتني إحدى خلاياها بوضعيتي.

كان المحافظ يعتقد أنّه سيستمتع بأيام الراحة التعويضية كي يهتم بحاجات مولده الأخير. ولكن في صباح الغد أيقظته رنّة الهاتف. كان مساعده يطلب حضوره فورا. لم يتمكن حتى من تحليق ذقنه. وصل إلى المكتب في هيئة مهملة وسحنة مدعوكة ومزاج فظ.

– ماذا حدث؟

– تعقّدت القضية.

– لماذا؟

– جاء مراسل صحيفة أجنبية يدس أنفه هنا. يظهر أنه على علم بما حدث.

– آه على هؤلاء الصحفيين الغربيين! طاعون حقيقي! إنهم يحومون دوما حول الروائح النتنة. وأتساءل لماذا تسمح الحكومة بتواجدهم في بلادنا؟ لحسن الحظّ أنّ الصحافة الوطنية تسلك سلوكا مخالفا تماما وإلا... ماذا يريد هذا الصحفي؟

– يبحث عن التفاصيل.

– أتمنى أنّك عرفت كيف تتملّص من أسئلته.

– إنه ذكي جدا. أظنّ أنّه تفطّن إلى ارتباكي.

– ألا تتعلم الكذب أبدا؟ إنّه ضروري في مهنتنا. يجب أنْ نتخلص من هذا الدخيل المزعج في أقرب وقت ممكن.

بعد يومين، حضرت سيارة مقنعة وأخذت معها الرجل ودليل الجريمة. تنفس المحافظ الصعداء وهو يتخلص من المشكلة التي أرّقته خلال اليومين الأخيرين.

– إنّ مثل هذه المصالح الخاصّة تسهّل علينا المهمّة كثيرا. شخصيا لا أرغب الاهتمام بمثل هذه الحالات.

تسلّل سائق السيارة المغفلة عبر مجموعة متتابعة من الشوارع الملتوية، الضيقة، المكتظة، وتوقف أمام سياج فيلاً جانبية واقعة تحت أشجار باسقة في أعالي العاصمة. أنْزِل المتظاهر، فنظر إلى الأماكن حوله محرّكا رأسه. ارتسمت على ثغره ابتسامة غريبة. سأله أحد المرافقين:

– ماذا يحدث لك؟

– لا شيء، لا شيء... أظنّ أنني أعرف هذه الأماكن أحسن معرفة.

أدخلوه إلى غرفة يبدو أنّها ظريفة. كانت مؤثثة بسرير مجهز بغطاء جديد وجوخ نقي. لاحظ أنّ الجدران ما زالت على نفس اللون. في زاوية الغرفة، يوجد مغسل فوق الإفريز وقد وضعت فوقه الأشياء الضرورية للنظافة.

أدار مفتاح الحنفية، نضح الماء بقوة، فسجّل استغراب: "هو ذا الماء يتدفق برغم العلوّ !"

قرّر اغتنام الفرصة ليغسل وجهه جيدا. وبعد ذلك، حلّق ذهنه بعناية، وتأسّف لعدم امتلاكه مقصا ليسوّي شلاغمه بقطع بعض الشعيرات المتمرّدة. وفي لحظة المراقبة النهائية، كان حزينا وهو يلاحظ في المرآة أنّ عنق قميصه كان متسخا. وُدَّ لو تمكّن من غسله. ولكنه خشيَ أنْ يُستَدعى للاستنطاق قبل أنْ يجف: "كيف يكون شكلي وأنا بالملابس الداخلية فقط؟"

كانت شكوكه في غير محلها. لقد انتظر يوما كاملا. وفي تلك المدّة دخل عليه مرّتين قيّمُ المنزل ليحط صينية الأكل فوق السرير. ولاحظ أنّ الباب لم يكن مغلقا بالمفتاح. سهر إلى غاية منتصف الليل لأنه خشي أن يوقَظ من النوم للإجابة عن الأسئلة. فكّر: "سأكون بحاجة إلى كل صفائي العقلي. سوف لن أتركهم يوقعونني في مطبات بألاعيبهم الشيطانية."

غلبه النوم أخيرا. في الصباح، حينما استيقظ، لاحظ الحالة التعيسة التي كانت عليه ملابسه. خَجل من نفسه: "لا يكون هذا الوضع في صالحي."

أبعدَت عنه هذه الوضعية الرغبة في تحليق ذقنه. على العاشرة صباحا، دخل الغرفة رجل لم يرَ ضرورة تقديم نفسه إليه. طلب منه أنْ يتبعه. ثمّ وجّهه إلى مكتب كان فوقه بكل تأكيد استبيان الاستنطاق الذي سيلاحقه من الآن فصاعدا أينما حلَّ. جلس الملازم الأوّل "بوطاما" قبل أن يدعو ضيفه إلى الجلوس. تظاهر بالانغماس في قراءة الوثيقة؛ ولكنّه لم يتوقف عن اختلاس النظر إلى الرجل الجالس قبالته. أخيرا، رفع رأسه، وكانت برطمة سيّئة تثقل شفتيه.

– إذًا هكذا، وبكل بساطة، تخرج وحدك إلى الشارع لتتظاهر؟

– على حسب علمي، لا يوجد قانون يمنع ذلك.

– وما هو هدف المظاهرة؟

– لقد قلته من قبل. أعبّر عن مساندتي للرئيس. هل في هذا الفعل ما يغيظ؟

– لم أقل هذا. ولكن بإمكانك أن تعبّر عن مساندتك بمناسبة المظاهرات التي ينظمها دوريا الحزب والنقابة.

– لم أتغيّب عن المشاركة فيها أبدا.

– إذا لماذا تخرج بمفردك؟

– لأنّ الحزب والنقابة لم ينظما تجمعا هذه المرّة. قدّرت أن ذلك شيء مؤسِف. لهذا السبب، اتخذت مبادرة فردية.

– ولكن من أوحى لك بالفكرة؟

– لا أحد. أنا دائما أتخذ قراراتي في استقلالية تامة.

– لماذا تعبّر عن مساندتك للرئيس بهذه الطريقة المكشوفة؟

– أعتقد بأنه منذ تواجده على رأس الحزب والدولة، قد حقق للبلد تطورات ملحوظة.

– هذا نعرفه جميعا. وهو ما تحكيه الصحف في كل صباح.

– لن نملّ من قوله أبدا.

– حقاً؟

– بكل تأكيد. أعاد الإصلاح الزراعي الأرض للفلاحين. ظهرت قوانين تُمكِّن العمال من المشاركة في تسيير المؤسسات واقتسام الأرباح. كما يمكن لأفقر شخص أن يعالج مجانا في المستشفيات. إن أبواب المدارس مفتوحة على مصراعيها لأبناء الشعب، وتزدهر الجامعات في المدن...

– يوجد أناس كثيرون لا يشاطرونك الرأي. ويقولون بأنّ الإنتاج الفلاحي في انخفاض مستمر، وأنّ المصانع لا تنتج شيئا، وأنّ العمال يقضون أكثر أوقاتهم في طوابير المساحات الكبرى التي تنقصها المواد الضرورية دوما، أكثر مما يقضونها في أماكن عملهم، وأنّ البطالة في ارتفاع مستمر مثل الجنح والأسعار، وأنّ مستوى التعليم كارثة وأنّ مؤسسات الصحة تحوّلت إلى أمكنة لانتظار الموت...

– إنه تشهير وقدح.

– هل أنت صادق فيما تقول؟

– وهل تشك في ذلك؟

– إن الخطاب الذي تلفظت به هو عادة خاصّية أفراد يتقاضون مقابله ثمنا مرتفعا. أما أنتَ، فإنّك مستخدم بريدي. هل لديك طموحات سياسية؟

– في مثل سني، لا نغذي مثل هذه المشاريع.

– طيّب. سنكف عن هذه اللعبة المثيرة للسخرية. إن فعلك هذا بالنسبة إليّ هو مناورة للنيل من شخصية الرئيس.

– كيف ذلك؟

– في العادة، تتدفق أمواج بشرية في الشوارع لمساندة الرئيس. أما رجل واحد في الشارع فهو دليل قاطع على أن الرئيس لا يحظى بأية مساندة شعبية.

– إنك تهزأ؟

– في هذا المكان، لا نتسلى إلا بين الزملاء. قل لي هل أنت شيوعي؟

– الله يحفظ !

– ألَم تقدِم معهم على فعل شيء ما؟

– أنا أميل إلى العزلة. أمشي وحدي مثلما لاحظتم. وزيادة على ذلك، فإنّ الحزب الشيوعي لا وجود له بما أنه قد تمّ حلّه.

– هل أنت عضو في حزب معارض للسلطة؟

– أية معارضة؟ لا أعرف أنها موجودة. لا تتحدّث عنها الجرائد أبدا.

– هل مسّتكم، أنت أو أي فرد من العائلة، إجراءات تأميم الأراضي؟

– ليسَت لديّ عائلة، ولم أملك في حياتي قطعة أرض مهما كانت صغيرة.

– تأميم المصانع إذا؟

– هل لديّ وجه رجل أعمال؟ كان أبي عاملا بالميناء.

– هل وقع لك خلاف شخصي مع أحد أعضاء الحكومة؟

– ليس من عادتي ملازمتهم.

– يكفي لهذا اليوم. سنكمل حوارنا لاحقا.

– هل يمكن أنْ أعرف نوع التهمة الموجهة إليّ؟

– لحد الآن حادثة تافهة: التظاهر في الطريق العمومي دون رخصة إدارية.

كان رئيس "بوطاما" قد قال له بالحرف الواحد:

– ينبغي أن نعرف من هو بالضبط. ابحَث في حياته. ابدأ بماضيه: يملك كل فرد في حياته شيئا من التلويث أو الخيانات الصغرى. إنه الشيطان بعينه إن لم تتمكن من اكتشاف بعض الأسرار المتخفية في سيرته. يمكن استثمار كل حادثة في حياته، مهما بدَت لك تافهة وغير ذات قيمة. وبعد ماضيه، احفر في حاضره. إن الوجود مصنوع من غيرات يومية وأحقاد أسبابها غير محدّدة. اسأل جيرانه في السكن، زملاءَه في العمل. إنه الشيطان بعينه إنْ لم يبوحوا لك ببعض الأسرار اللذيذة. ولا تنسى تسجيل كل العناصر الإيجابية. لا نعرف أبدا ماذا سيَقع.

كانت السيّدة الثخينة تعرف بالتجربة أن الشرطة نادرا ما تحقق في صالح المواطن، لذلك ارتأت مباشرة إمكانية استغلال الوضعية لصالحها. أرادت أن تعرف أكثر، ولكن "بوطاما" أظهر صرامة فورية وأفهمها بأدب بأنه جاء ليأخذ المعلومات وليس لإعطائها.

– إنك يا سيّدي عند عائلة محترمة. ويمكن للجيران أن يؤكّدوا لك ذلك. إنني أسكن في هذه العمارة منذ خمس عشرة سنة ولم يحدث لي أدنى شجار مع أحد. لا أهتم إلا بأولادي، وأسهر أن لا يلتحقوا بالأمواج الصاعدة للمشردين الذين يعاشرون ليل الشوارع. لا أملك الوقت الزائد لأخصصه للآخرين. ولكن بما أن الشرطة هي التي تسألني فإنّ واجبي المدني يضطرني إلى قول الحقيقة.

وشجعها الضابط قائلا:

– بكل تأكيد سيّدتي.

– أصارحكم بأنّ هذا الرجل غريب شيئا ما. لم أشاهده يقوم بواجباته تجاه الجار. عادة ما أنتظره في ردهة الدرج عند عودته من العمل، كي أتحدّث معه قليلا حديثا صغيرا، بدون موضوع محدد، فقط لتغيير الجوّ ونسيان الهموم اليومية. هل تتصوّر أنه لا يكاد يتلفظ بكلمتين أو ثلاث قبل أن يغلق الباب خلفه. ولمرات عديدة، ذهبت عنده أطلب قليلا من الملح أو الخبز أو الحليب... إنك تعرف ولا شك مشاكل التموين في البلد... يزور المرء محلات عديدة ويعود بيدين فارغتين، دون أن يحظى بأية سلعة مهما كانت ضئيلة. ينبغي على الجيران أن يتعاونوا فيما بينهم. هل تصدّق بأنه أغلق الباب في وجهي. لا، حقا، كل ما يمكن أنْ يُقال هو أنه يسلك سلوكا غريبا. هل تصدّق أنه في اليوم الذي ظهر فيه الموز يباع في المساحات الكبرى، اصطف كل أفراد الحي خلف الطابور الطويل لاقتناء الكرطون الثمين الذي يزن خمسا وعشرين كيلوغراما من الفاكهة العجيبة، باستثناء صاحبنا هذا؟ لماذا بربّك لم يفعل مثل الآخرين؟ هل حقا لا يحب الموز؟ ألا تجد هذا السلوك غريبا؟ بل غير معقول؟ وأقول لك أكثر من هذا: لم يكن موجودا أيضا يوم وزعوا تلك الأغطية المستوردة مباشرة من الصين. إنها أغطية رائعة، ناعمة ودافئة مثل زوجتك التي تنتظرك في الفراش في مساء شتويّ، شديد البرودة. وبيعَت في السوق السوداء بسعر يفوق ثلاث مرات سعرها الرسمي. إنّ الناس كلهم يحتاجون إلى الأغطية. ليسَت من المواد القابلة للتلف، ويمكن المحافظة عليها لأطول مدّة ممكنة. وأنا متأكّدة بأنك أسرعت للالتحاق بالطابور في المساحات الكبرى لحيّك بمجرّد سماعك أن مثل تلك الأغطية قد وصلت. وهناك ما هو أخطر من كل هذا. ولكنني لا أعرف إنْ كان من حقي البوح به.

– إنه من واجبكِ سيّدتي أنْ تساعدي الشرطة.

– هل يمكنك تخيّل أنه رفض تسجيل اسمه في قائمة المترشحين لإجراء القرعة التي ستعيّن المستفيد المحظوظ حينما استلمت الإدارة التي يشتغل بها حصتها من الأجهزة الكهرومنزلية. لا تقُل لي بأنّ مثل هذا السلوك معقول، ها...؟ ماذا كان سيَخسَر لو سجّل اسمه؟ لم يكن مضطرا للوقوف خلف طابور طويل، بل كان بإمكان أن تُحمَل له البضاعة إلى غاية مكتبه. وإذا لم يكن بحاجة إلى ثلاجة أو جهاز تلفاز أو طباخة، فكان بإمكانه إفادة أحد أصدقائه، بل وأحسن من ذلك أحد جيرانه، أو الاحتفاظ بها في بيته تحسبا لأي خلل قد يقع لجهازه الحالي والذي لم يتمكن من تصليحه نظرا لندرة قطع الغيار، بل وكان بإمكانه أن يفعل مثلما يفعل الجميع، فيبيع الجهاز بفائدة تفوق ضعف مرتبه الشهري. لا يمكنك بعد كل هذه الأمثلة أن تقول لي بأنه ليس شخصا غريبا؟ ومع ذلك، فهناك ما هو أخْطر يا سيّدي الشرطي.

– إنني مصغٍ إليك سيدتي.

– إني متردّدة. على كل حال، حياته الخاصّة لا تهمه إلا هو.

– إن هذه الخصال تشرّفك سيّدتي، ولكنني أؤكّد لكِ أنكِ لا تقومين إلا بالواجب.

– ولكن ما هو الاتهام الذي توجّهونه له؟

– إنني محظوظ بلقاء سيّدة نبيلة وشريفة مثلك. إن لأخبارك أهمية كبيرة بالنسبة للشرطة. وستعرف مصالحنا كيف تتذكر تعاملك الطيب معنا.

– حقا...

– أؤكّد لك ذلك.

– ما أردت قوله هو أنّ الرجل أعزب، يعيش بمفرده.

– عفوا...

– نعم، بلا زوجة ولا أولاد.

– وحده حقا؟

– بكل تأكيد. غير معقول، أليس كذلك؟ المؤكّد أنّ حياة العزوبية لا تتلاءم مع رجل في مثل عمره. كيف يفعل، أطرح عليك السؤال؟ هل يتردّد على تلك الأمكنة الفاسدة؟ أم أنه يتدبّر أمره وحيدا في غرفة الحمام؟ وفي الحالتين، فالأمر غير سليم وغير صحي، إلا إذا كان مصابا بعيب مفزع. فهو لا يدعو أحدا إلى بيته، ربّما يفعل ذلك لحماية سرّه...

– ألا يحدث أن تزوره امرأة بين الفينة والأخرى؟

– لا، أبدا. أؤكّد لك ذلك. زد على هذا أننا، جارتي وأنا، لم نكن لنقبل بمثل هذه الزيارات.

– هل يحدث له أن يقضي لياليه خارج البيت؟

– إنه وفيّ لسريره كما لو أن أجمل امرأة في الكون تنتظره كل مساء.

– ألَم يتزوج مرة ثانية؟

– نعَم ومنذ عشرين سنة. هكذا قالت العجوزان الشرستان اللتان تسكنان في الطابق السادس. كانت زوجته نصف امرأة، نحيفة ومبتسمة. توَفّت بعد ستة أشهر من الزواج بمرض غريب، من السقام مثلما قالت لنا اللائي عرفناها. ولكن اليوم، وعلى ضوء ما تعرفه، لا يمكن استبعاد احتمال القتل.

– أهكذا تفكرين؟

– أظن أنّ مهنتك تجبرك على أن لا تستبعد أي احتمال.

– الحق معك سيّدتي، سأتبع نصيحتك.

– وهل ترى أنّه من المعقول لرجل أن يبقى بلا امرأة لمدّة عشرين سنة؟ والحق يقال أنه لو أراد الزواج لما اضطر إلى الذهاب بعيدا للعثور على من تعتني به وببيته. أنا مثلا ما زلت قادرة على إعطائه كل الأطفال الذين يريدهم وبحيوية لم يكن ليحلم بها. ولكن هذه مهمته هو. ورغم ذلك، لا أمنع نفسي من التفكير بأنه رجل لا يليق باستعمال المكنسة والنشافة. وفوق كل هذا، ولكي يسخر منا جميعا، يتمتع وحده بشقة واسعة من ثلاث غرف، بينما أعيش أنا مع سبعة أطفال، أكبرهم في سن الزواج، في غرفتَين صغيرتَين. سبَق لي أن طلبت منه ولمرات عديدة تبادلا عادلا؛ ولكنّه ضحك في وجهي. قل لي هل هو في السجن؟ وهل سيبقى لمدة طويلة؟

– لماذا تطلبين مني ذلك؟

– في هذه الحالة، أُفضّل أنْ أكون أوّل من أتقدّم إلى ديوان السكن أطلب تسجيل شقته باسمي. لديّ الأوّلوية. وأتمنى أن تدعّم طلبي. إن مساندتك ستكون مفيدة لي. أعرف كيف تجري مثل هذه الصفقات. إنّ موظفي هذا الديوان مرتشون وفجّار إلى درجة أنه لا يُستغرب أن تُمنَح هذه الشقة إلى فتاة جميلة ولطيفة تحسن استقبالهم وشكرهم على طريقتها الخاصّة.

استقبل رئيس المصلحة الضابط دون طول الانتظار. إنه شاب أنيق وجذاب. كان يجلس خلف مكتب مكشوف. وككل رجال الشرطة، يتأفف "بوطاما" من الشرح. دمدم بين شفتيه أنه يريد معلومات حول أحد عمال البريد.

– هل يعمل في مصلحتكم منذ مدّة طويلة؟

ابتسم الموظف. بدا مزهوا بشخصه وحياته. كان نبيها وهادئا.

– ينبغي عكس السؤال. إن زميله في العمل وهو الذي يعدّ حسابات دقيقة، أكّد لي بأنني المسئول السابع عشر الذي يتولى رئاسة هذه المؤسسة، وسوف لن أكون الأخير لأنه ليس في نيتي الخلود ها هنا. أُسنِدَت إليّ هذه الوظيفة لأنني أملك شهادة الدراسات العليا ولا أتقن عملا معينا. وبما أنني غير كفء

لممارسة هذه المسئولية، أنتظر الوقت المناسب للتسلّق أكثر في الوظيفة. والحاصل أنه لا يمكنني أن أكون أقل كفاءة لأتسلّم وظيفة أخرى. إن مسئولينا الكبار الذين حلّلوا جيدا الوضعية الراهنة يعرفون بأن المسئولين الذين يُعيّنون على رأس وظائف مهمة، وبسبب قصورهم لا يملكون أي تأثير على السير الحسن للأجهزة التي من المفروض أنهم مكلفون بتسييرها. ولهذا السبب فإنهم يسمحون لأنفسهم بتغييرهم مرارا ما داموا يخدمون مصالحهم، ولا يترددون في إسناد هذه الوظائف لأصدقائهم، وهم يعرفون أنّ هؤلاء عديمو الفعالية تماما مثل المعوقين. وفي المقابل، كلما هبطنا في السلم الإداري، كلما ظهرت كفاءات أكثر. لنتكلم بصراحة، ماذا أفعل أنا في هذا المكتب؟ أؤكّد لك أنني أكتفي بإمضاء الوثائق التي يعدّها المرؤوسان اللذان يعملان معي. ولا داعي للتأكيد بأنني لا أفقه شيئا في العبارات المعقّدة التي أسهب في النطق بها. وأنا مقتنع بأنّ الذي ألّفها يتمتع بكفاءة عالية، وقد يكون بلا ريب عاملا في الدرجة الأوّلى. حينما لا نملك شهادة ولا كفاءة، يمكننا الحلم بأن نصبح وزيرا في يوم ما. ما عليك إلا النظر إلى مظهر أعضاء الحكومة. وفيما يخصني، سأبقى متفائلا بالرغم من العائق الجدي الذي تكونه فترة دراستي الطويلة.

لاحظ الضابط لمحاوره الفصيح أنه لم يأتِ إلى مصلحته ليتعرّف على تناقضات البيروقراطية البريدية.

– ماذا تريدني أن أقول لك؟ بأنه موظف مثالي؟ يبقى هذا دون الحقيقة. بالنسبة إليّ إنه ديناصور، بمعنى أنه من بقايا نوع قد انقرض منذ زمن بعيد. مثال بسيط كي نحدّد موقع صاحبنا: لا يصل إلى عمله متأخرا أبدا، برغم أنه يسكن في حيّ بعيد من هنا. أمر عجيب في مدينة يبحث الناس فيها دوما عن الحافلات النادرة مثلما يبحث المرء عن الواحات في الصحراء. لا أعرف كيف يتدبّر أمره؛ ولكنّه يحضر دائما على الساعة الثامنة. وليست هذه حالتي طبعا. ولا داعي للتحديد بأنه لم يتغيّب يوما واحدا عن عمله منذ سنوات. وحينما جاء زميله وأخبرني بغيابه، أدركت مباشرة بأنّ حادثا خطيرا قد وقع له. وبالمناسبة هل يمكن أن تقول لي ماذا وقع له؟ ينبغي تسجيل ذلك في التقرير.

– لست مرخصا للإجابة عن مثل هذا السؤال. قل لي، ما هي مواقفه السياسية؟

لم يتمالك رئيس المصلحة نفسه من الضحك.

– عفوا، لم أفهم جيدا سؤالك.
– أريد معرفة مواقفه السياسية.
– إنك تهزأ...
– هل لاحظت ذلك في وجهي؟

– وماذا يَهمّني في مواقفه السياسية. هل تراني أتحدّث معه في ذلك؟ وماذا تعني عبارة: مواقف سياسية؟ هذا شيء جيد خاصّ بالدول الديمقراطية. أمّا عندنا، فالسياسة قضية الحزب الواحد الذي ينشر في جريدته الموجهة لمناضليه ليعلّمهم كيفية التفكير في قضايا الساعة الكبرى، لا غير. وعلى المسئولين السياسيين أن يحفظوا هذا الخطاب عن ظهر قلب. أما بني آدم العاديون، فإنهم يكتفون بقراءة الصفحة الرياضية. ولا أحب الذين يقضون وقتهم في التكهنات أو في نشر الشائعات، مثل الذين يؤكّدون لك بوقاحة أن عمال النظافة مضربون في الوقت الراهن، رغم أن الجرائد أوضَحت أنّ سبب تراكم الأوساخ على الأرصفة هو تعطيل تقني للشاحنات المكلفة بجمعها. ولا مبرر في البدء بالهذيان. هل تتذكّر زلزال الأصنام؟ لقد بدأ الناس يتحركون ويقيمون الخسائر ويعدّون الموتى وينظمون الإغاثة قبل أن تجتمع الحكومة وتقرّر إذا ما كان الزلزال قد وقع أو لم يقع. بالنسبة لرمضان أيضا، قد لاحظت بدون شك ماذا يحدث كل سنة. لا يثق المؤمنون في ما يعلنه التلفزيون. ويقدّمون الصوم أو يؤخرونه دائما بيوم واحد. هذا ليس وضعي أنا. لذلك أطلب منك ما هي هذه المواقف؟ ولا تظن بأنني سأطلب رأيه حول حرب الفيتنام أو غزو أفغانستان؟

– هل ينتمي إلى النقابة؟

– بكل تأكيد. إن كل موظف يتلقى بطاقة مع أول إيصال الأجرة، ويخصم ثمن الطوابع بطريقة آلية من الأجرة الشهرية، تماما مثل الضرائب والضمان الاجتماعي وكذا التبرعات التطوعية لصالح الإصلاح الزراعي أو فلسطين. ألا يحدث هذا عندكم؟

– أريد أنْ أقول هل هو عضو الفرع النقابي؟

– لقد شرحَت لك أنه وزميله يسيّران المصلحة كلها. كيف يستطيع ذلك لو كان عضوا في الفرع النقابي؟ وحتى حينما ندافع عن حقوق العمال، لا يمكن أن نكون في الطاحونة والفرن في آن واحد.

– هل زميله حاضر هنا؟

– في المكتب المقابل.

– شكراً.

انتقل الموظف البريدي لجلب الكرسي العتيق الذي يجلس عليه زميله الغائب وقدّمه للزائر. وبعد ذلك علّق مبرّرا:

– لم نتعوّد على الاستقبالات في هذا المكتب. إن عملنا تقني صرف.

– أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة فيما يخص زميلك في المكتب.

– أنا تحت تصرفك. هل تسمح بملاحظة أولية؟

– باختصار شديد...

– أعرف بأنّ رئيسي يميل إلى الإطناب، ولكنني على نقيضه تماما.

– إنني مُصغٍ إليك.

– يخيّل إليّ أنني رأيتك قبل ذلك.

– نعم؟ إننا نتوقع كل شيء من مستخدمي البريد. كنت أظن أنّ مثل هذه العبارات مخصصة فقط للحسناوات اللائي يطاردهن بعض الطائشين عديمي الخيال.

– ربّما نسكن في نفس الشارع.

– مُمكن جدا. ولكنني أتيت هنا لأطلب منك أن تكلمني عن صديقك.

– إنه ليس صديقي.

– هذا مهم جدا، وكيف ذلك؟

– نحن زملاء في العمل ولسنا صديقين.

– أفهم ذلك. لقد أكّد لي رئيسك أنّ علامته أحسن من علامتك.

– كان الوضع دائما على هذه الحالة، وهو أمر عادل تماما.

– منذ متى وهو يشتغل هنا؟

– هل ترى هذين المكتبين الحديديَين؟ إننا هو وأنا، يجلس كل واحد منا خلف أحدهما، ونحن متقابلان منذ أربعين سنة. عرفت البلاد تقلبات وتغيرا ت كبرى. انتهت الحرب العالمية الثانية والمسيرة الصينية الطويلة، وحربي كوريا والهند الصينية، نجحت الثورة الكوبية، حروب التحرير واستقلال دول كثيرة بما في ذلك بلدنا، حرب الفيتنام، الرجل الأوّل على سطح القمر... ولكن هذا المكتب لم يعرف أدنى تغيير. إنه جزيرة الأزمنة الثابتة. استمررنا زميلي وأنا على الدخول يوميا على الساعة الثامنة والجلوس خلف هذه الأثاث لنبدأ دائما في ملئ نفس البيانات. لا وجود لشيء ثابت أكثر من العملية البيروقراطية. هي وحدها تَصْمد أمامَ الأحداث والرجال.

– بالضبط هل تحدثني عن ماضيه؟

– يتلخّص في كلمتين: جالس قبالتي.

– قبل اندلاع حرب التحرير، هل كان يناضل في حزب سياسي؟

– أجهل ذلك.

– حقا؟

– إننا هو وأنا اتفقنا على قاعدة، نحافظ بموجبها عن نوعية علاقتنا، أن لا يسأل أحدنا الثاني أسئلة شخصية. هو سرّ تعايشنا الطويل.

– أردت أن أقول بأن الحزب الشيوعي في تلك الفترة كان منتشرا في أوساط البريد.

– هذا ليس خطأ. إنني كنت عضوا فيه. هل أفهم من هذا أنّ الذي انتمى إلى حزب عمالي قد أصبح اليوم مجرما؟

– إنني أستخبر فقط ولا أطلق أحكاما. كيف كان موقفه تجاه حرب التحرير؟

– شبيها بموقف الأغلبية الساحقة لسكان هذه المدينة: الحفاظ على سلامة الرأس فقط.

– فقط؟

– ظل يصل إلى مكتبه على الساعة الثامنة بالضبط، حتى في الأيام التي يكون فيها الحيّ مطوَّقا بالمظليين.

– وكيف كان يفعل؟

– أجهل ذلك.

– ولم يقع له حادث ما؟

– الآن أتذكّر بأنّه في يوم من الأيام اتّصل بنا شَخصٌ غريب.

– نعم؟

– أكّد لنا أنه يمثل الجبهة وطلب منا مساعدته لفتح حسابات جارية خيالية لتسهيل عملية نقل كمية من المال إلى الخارج، والتي كانت حسب قوله مخصّصة لشراء الأسلحة.

– وبعد؟

– أنا رفَضت طبعا. ولكنه قَبِل. ولم يكن راضٍ عن نفسه كثيرا.

– لماذا؟ يمكن له اعتبار الفعل شكلا من أشكال المقاومة.

– لسببَين اثنَين: أولهما أنّ رئيس المصلحة وهو فرنسي في ذلك العهد، كان يتمتّع بكفاءة أعلى من تلك التي تسيِّرنا اليوم، فلم يتأخّر من اكتشاف الحركات الغريبة لتلك الحسابات. ظنّ أنّ هناك اختلاسات فأخبر الشرطة. ولم تتوانَ هذه الأخيرة بمساعدته في اصطياد الأرنب الكبير. زارتنا المصالح الخاصّة ولم تتردّد لحظة في تبرئتي ليتحمل وحده نتائج قراره. أخذوه إلى فيلاّ في أعالي العاصمة. آه، إنني تذكّرت الآن.

– ماذا تذكّرت؟

– بعد توقيفه، جاء رجل يطرح عليّ أسئلة حوله.

– وما الغريب في الأمر؟

– إنه يشبهك بشكل غريب.

– إنك تهزأ! لم يكن عمري آنذاك يتجاوز الأربع سنوات.

– بكل تأكيد. وهذا هو الشيء الخطير والمربك في آن واحد.

– اسمَع يا السي.... اكتَفِ بالجواب على الأسئلة واحتفظ بتعليقاتك لنفسك.

– لا تحاول أن تُرْهبني أيها الرجل. إنك لن تستطيع ذلك. فأنا من الذين يملكون حياة ملساء إلى درجة أنني لا أخشى أحدا مهما تغيّر نظام الحكم أو المناخ. لقد التزَمْت الحياد طوال حياتي إلى حدّ أنه يستحيل من الناحية الموضوعية اتهامي بأي شيء كان سواء من هؤلاء أو من أولئك.

- وماذا حدث بعد ذلك؟
- بعد غياب دام ثلاثة أشهر، عاد إلى الجلوس في مواجهتي.
- وماذا فعلوا له؟
- لم يرغب في مصارحتي بما وقع له.
- وكيف حدَث أنْ أُطلِق سراحه بهذه السرعة؟ وما هي الأسباب التي أدّت بإدارة البريد إلى إدماجه؟ ربّما قلَبوه؟
- قلَبوه؟ نعم بدون شك. كان مقلبونا عند الاستقلال حينما علم أن الأموال التي سهّل على تحويلها لم تُستخدَم لشراء بندقية واحدة، بل ضخّمت حسابات خاصّة.
- وماذا فعل بعد ذلك؟
- راسَل جَميعَ الجهات، يُندّد بتلك الاختلاسات؛ ولكنّه لم يتلقَّ جوابا واحدا.
- وما مصير مراسله الغريب؟
- أصبح وزيرا للمالية.

كان المتظاهر مسرورا لأنّه استُدعي مباشرة بعد أن ارتدى قميصه الذي جفّ لتوه. لاحظ أنّ خطوط الطيّ لم تحافظ على صلابتها المعهودة في السروال. دخل المكتب مادا يده فيما كانت الابتسامة ترفرف على شفتيه. ولكن "بوطاما" تجاهل اليد الممدودة، وقابله بنظرة قاسية. ثمّ وبحركة من ذقنه، أفهم الرجل بواجب الجلوس. نفّذ هذا الأخير الأمر في صمت. دمدم الشرطي قائلا:

- لقد عرفت عنك أخبارا كثيرة.
- حقا؟ إنك تفاجئني.
- اقرأ هذا أوّلا.

مدّ الرجل يده لتناول المقال القصير لجريدة مقصوصة بعناية. بعد قراءتها ثمّ أعادها إلى صاحبها.

- نَعم؟
- كيف استطاع هذا الصحفي الأجنبي أن يتعرّف على مغامرتك؟
- لا أعرف. كُتِب على رأس المقطَع: مُراسلنا الدائم. نستنتج أنه يُقيم في المدينة. ويُحتَمل أن يكون قد شاهَد مسيرتي.
- من أخبره بأنّك ستقوم بمظاهرة؟
- ليست لدي أية فكرة. ولكن المراسل يسكن المدينة، فبإمكانك أن تستخبر لديه.
- ليس هذا كل شيء.
- أنا في الاستماع.
- لقد فتّشت منزلك.

– أتمنى أنْ تكون قد استخرجت رخصة التفتيش.

– إن مصالحنا ليست بحاجة إلى مثل هذه الرخص أبدا.

– وماذا اكتشفتم؟

– جزء من موضوع من نفس الجريدة الأجنبية، يصف الحالة السيئة للطرقات في الجنوب الغربي للبلاد.

– وماذا تستنتجون؟

– تحرّيت لمعرفة النص الأصلي في أرشيفنا.

– وماذا بعد؟

– إنني مضطر إلى الملاحظة بأنّك قصصت الفقرة الأكثر نقدا تجاه شبكة الطرقات، لأن الكاتب بعد ذلك سجّل جميع الطرق الجديدة المنجزة حديثا لفك العزلة عن مناطقنا النائية.

– لم أقرأ ذلك أبدا.

– ها هو النص الأصلي.

– ليس هذا ما أردت قوله. أنا مستخدم في البريد، وحالة شبكة الطرقات في بلادنا لم تنل اهتمامي أبدا. ومن جهة أخرى، فأنا نادرا ما أسافر. بالمقابل، فإنني من الهواة المتحمسين للعبة الشطرنج، وأتابع بعناية كل نهائيات كأس العالم.

– لا أرى العلاقة.

– لو أجهدت نفسك قليلا وقرأت خلف الصفحة لأدركت أنها تحوي تلخيص مقابلة تاريخية. ثمّ إنّ في الدرج الذي وجدت فيه هذا الموضوع، هناك رزمة من المقالات تعالج نفس الموضوع.

– ولكن القصاصات الأخرى ليس بها أشياء ذات أهمية في الخلف.

– إنّه الدليل على اهتمامي الكبير بلعبة الشطرنج.

– هناك ما هو أخطر. لقد سألت رئيس المصلحة وزميلك في المكتب، فاتفق الاثنان على أنك موظف نموذجي.

– هذا يريحني كثيرا.

– لقد أكّدا لي أنّك لم تتغيّب أبدا وأنّك لم تتأخر عن عملك أيضا. إذا قل لي، هل تجد هذا السلوك عاديا؟ ألَم يَحدُث لك أنْ أصِبت بمرض أبدا؟

– إنّني أتمتّع بصحّة جيّدة وأشكر الله على هذه النعمة.

– ألَم يحدث لك أنْ زرت خالتك في المستشفى؟ أو استقبلت قريبا لك عائدا من البقاع المقدّسة؟ إنّها التزامات يصعب التخلص منها بسهولة.

– إنني بدون عائلة.

– قل لي أيضا، كيف تفعل كي تكون دائما مواظبا على الوصول إلى عملك دون أدنى تأخير؟ أعرف بأنك تسكن بعيدا عن مقر عملك، ونعرف جميعا أنّ وسائل النقل في المدينة متقلبة الأطوار مثل الطفل الوحيد لعائلة ثرية، وأنك لا تملك سيارة ولا الإمكانيات المالية لتسافر بالطاكسي. اشرَح لي هذه الغرابة من فضلك؟

– يكفي للإنسان أنْ يستيقظ باكرا فقط.

– وهل يُمكن أن تقول لي لماذا لم تتزوّج مرة ثانية؟

– أجهل بأن الزواج إجباري ويعاقب القانون المخالفين له.

– هي على كل حال ظروف تضاعف من خطورة التهمة الموجهة إليك.

– أنا محجوز عندكم منذ أيام عديدة وأتقبل أسئلتكم، فهل يمكنني الآن معرفة نوعية التهمة الموجهة إليّ؟

– إنك جاسوس.

– ماذا تقول؟

– إنّك فهمت جيدا قولي. هل تسخر مني؟

– لقد سبق لي أن أكّدت لك أننا هنا لا نتسلى إلا بين زملاء المهنة. لقد قلَبَك المظليون أثناء إيقافك بعد قضية الحسابات الخيالية. وعدت بعد ذلك إلى مكتبك كأنّ شيئا لم يحدث. ولكي لا تجلب إليك الأنظار، سلكت سلوك الموظف النموذجي.

– أفيدك بأنّني كنت أعمل بالطريقة نفسها قبل تلك الحادثة.

– ذلك شيء طبيعي. في تلك الفترة كان رؤساء المصالح لا يستهترون بالعمل. ولكن الأحوال تغيّرت، وخطأك الأساسي أنك لم تفهم أنّ مواظبتك وانضباطك في العمل هما مصدر الشكّ الأوّل. واستنتج أنّك لم تتزوّج ثانية خوفا من اكتشاف رفيقتك لنشاطاتك المشبوهة.

في إحدى الليالي، جاءت مجموعة أشخاص وأخذت السجين مقيّد اليدين نحو سجن عسكري بعيد. حشروه داخل زنزانة أرضية، ولم يخرج منها إلاّ بعد ثلاثة أشهر، ليجد نفسه وحيدا، وجها لوجه مع ثلاثة ضباط وقورين، يجلسون خلف طاولة طويلة. بادر أعلاهم رتبة وقرأ عناصر الاتهام:

– إنّك متهم بالتخابر مع العملاء الأجانب والمساس بالأمن الداخلي والخارجي للدولة الوطنية واختلاس أموال الجبهة وإهانة رئيس الدولة والإخلال بالنظام العام. وقد تقودك هذه التّهم الخطيرة إلى المشنقة. فما قولك للدفاع عن نفسك؟

رشيد ميموني كاتب جزائري باللغة الفرنسية، من مواليد 1945 ببودواو من عائلة فلاحية فقيرة. تابع دراسته بجامعة الجزائر ونال ليسانس في العلوم الاقتصادية. اشتغل أستاذا في المدرسة العليا للتجارة. نشر روايات عديدة أشهرها "النهر المحوّل" (1982) و"شرف القبيلة" (1989) "شقاء يُعاش"

(1991). في بداية العشرية السوداء، وتحت تهديد الجماعات الإرهابية، هجر إلى المغرب وتوفى هناك في 12 فيفري 1994.